علاجُ توارد الخواطر في الصلاة

كيف نوجِّه وجهَ القلب إليه تعالى

إعداد: خليل الشيخ علي

من أفضل ما تربّى عليه المؤمنون عبر الأجيال من كُتب العلماء في موضوع الصلاة، كتاب (أسرار الصلاة) للشهيد الثاني زين الدين الجبعي العاملي قدّس سرّه، والمطبوع منفرداً وضمن رسائل الشهيد. هنا تقدّم «شعائر» بعض دروسه القيّمة. جعلنا الله تعالى وإيّاكم من المصلّين.

الدواء في إحضار القلب هو رفعُ الخواطر، ولا يُدفَع الشيء إلّا بدفع سببه، وسببُ توارد الخواطر إمّا أن يكون أمراً خارجاً، أو أمراً في ذاته باطناً.

أمّا الخارج، فما يَقرع السَّمع أو يَظهر للبصر، فإنَّ ذلك قد يخطف الهمّ حتّى يَتبعه ويَنصرف فيه، ثمّ يَنجرّ من الفكر إلى غيره ويَتسلسل، ويكون الإبصار سبباً للأفكار، ثمّ يصير بعض تلك الأفكار سبباً للبعض الآخر. ومَن قَوِيَت رتبتُه وعَلَت همّته لم يُلْهه ما يجري على حواسّه، ولكنّ الضعيف لا بدّ وأن يتفرّق به فكره، فعلاجه قطع هذه الأسباب بأن "..." يصلّي في بيتٍ مظلم، أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسّه، أو يقرب من حايط عند صلاته حتى لا تتّسع مسافةُ بصره.

ويحترز من الصلاة على الشوارع وفي المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المزيَّنة، فلذلك كان المتعبِّدون يتعبَّدون في بيتٍ صغيرٍ مظلم، سعتُه بقدر ما يمكن الصلاة فيه ليكون ذلك أجمع لِلهمّ. وينبغي أن لا يعدل إلى غضّ العينين ما وجد السبيل "..." وَلْيُحضِر بباله عند نظره إلى موضع سجوده أنّه واقفٌ بين يدَي ملك عظيم يراه ويطّلع على سريرته وباطن قلبه، وإن كان هو لا يراه، وأنّ التوجّه إليه لا يكون إلّا بوجه القلب، ووجهُ الرأس مثال ومضاف بالتّبع. وأنّه يخاف إن ولّاه ظهْر قلبه أن يطرده عن باب كرمه ويسلبه مقام خدمته ويُبعده عن جناب قدسه. "..." وكيف يليق بالعبد أن يقف بين يدَي سيّده ويوليه ظهره ويجعل فكره في غير ما يطلبه منه؟ لا ريب في أنَّ هذا العبد مستحقٌّ للخذلان مستوجبٌ للحرمان "..." فبهذا ونظايره يجتمع الهمّة ويصفو القلب.

زجرُ الباطن أشدّ

وأمّا الأسباب الباطنة فإنّها أشدّ. فإنَّ من تشعَّبت به الأمور في أودية الدّنيا، لم يحضر فكره في فنٍّ واحد، بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب. "..." فهذا طريقُه أن يردّ النفس قهراً إلى فهم ما يقرأه في الصلاة، ويشغلها به عن غيره، ويُعينه على ذلك أن يستعدّ قبل التحريم [تكبيرة الإحرام] بأن يجدِّد على نفسه ذكر الآخرة، وموقف المناجاة، وخطر القيام بين يدَي الله تعالى، وهول المطَّلع، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عمّا يهمّه، فلا يترك لنفسه شغلاً يلتفت إليه خاطرُه. فهذا طريق تسكين الأفكار.

فإن كان لا يسكن هايج أفكاره بهذا الدواء المسكِّن، فلا يُنجيه إلّا الذي يقمع مادّة الداء من أعماق العروق، وهو أن ينظر في الأمور الشاغلة الصارفة له عن إحضار القلب، ولا شكّ أنّها تعود إلى مهمّاته وأنّها إنّما صارت مهمّاً بشهواته، فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلايق وكلّ ما يشغله عن صلاته، فهو ضدّ دينه، وجندُ إبليس عدوّه "...".

إن أردت الخلاص فاقلع الشجرة

فهذا هو الدواء القامع لمادّة العلّة ولا يُغني غيره، فإنَّ ما ذكرناه من التلطُّف بالتسكين والردّ إلى فهم الذكر ينفع في الشهوات الضعيفة والهمَم التي لا تشغل إلّا حواشي القلب. فأمّا الشهوة القويّة المرهقَة، فلا يَنفع منها التسكين، بل لا تزال تُجاذبها وتُجاذبك ثمّ تغلبك، وتنقضي جميع صلاتك في شغل المجاذبة. ومثاله رجلٌ تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره، فكانت أصوات العصافير تشوِّش عليه، فلم يزل يطيِّرها بخشبة هي في يده، ويعود إلى فكره فتعود العصافير فيعود إلى التنفير بالخشبة، فقيل له: إن أردت الخلاص فاقلع الشجرة، فكذلك شجرة الشهوة إذا استقلّت وتفرّقت أغصانُها، إنجذبت إليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار.

"..." فهذه الشهوات كثيرة "..." ويجمعها أصل واحد وهو حبّ الدنيا، وذلك رأس كلّ خطيئة. "..." ومَن انطوى باطنه على حبّ الدنيا حتى مال إلى شيء، لا ليتزوَّد منها ويستعين بها على الآخرة، فلا يطمعنّ أن تصفو له لذّة المناجاة في الصلاة؛ فإنّ مَن فرح بالدنيا فلا يَفرح بالله وبمناجاته، وهمّةُ الرجل مع قرّة عينِه.